العرب
الإثنين 2020/11/23
السنة 43 العدد 11890

إيران تساير تحولات القاعدة وتأثيراتها في المشهد الأفغاني

طهران تنسج شبكة روابط مع قوى جهادية استعدادا لتداعيات اتفاق واشنطن وطالبان

لم يغب ملفان رئيسيان عن التطورات الأخيرة التي شهدها تنظيم القاعدة وهما إيران وأفغانستان، ومستقبل التعاطي الأميركي معهما، نظرا لعلاقة هاتين الدولتين المباشرة وغير المباشرة بالتنظيم المتطرف. ومع تساقط بعض القطع على رقعة الصراع، يتبين أن جولة من جولاته توشك على نهايتها لتبدأ جولة أخرى بوجوه جديدة في السلطة، خاصة مع تغيرات المشهد في أفغانستان، وهي الساحة الأهم لعدد كبير من اللاعبين الدوليين والإقليميين.

مثلث المصالح.. القاعدة وطالبان وإيران

هشام النجار
كاتب مصري

القاهرة – تجهز إيران أوراقها سواء التقليدية أو البديلة في مواجهة الإدارة الأميركية استخباراتيا وعملياتيا، التي تجتهد لحرمان "عدوها" من أوراق لعبه، ولا يهمها أين تكون الضربة حتى لو نُفذت في قلب طهران، بينما طالبان والقاعدة يناوران بالخشونة حينا والمرونة حينا آخر، ويلعبان على المتناقضات وعلى كل الحبال.

وبرز اسم تنظيم القاعدة على شريط الأحداث مؤخرا في ما يتعلق بالحديث عن وفاة زعيمه أيمن الظواهري، وتصفية قادته المرشحين لخلافته في إيران وأفغانستان، مع اقتراب انتقال السلطة في الولايات المتحدة للحزب الديمقراطي وما يعنيه من توجس بعض القوى الإقليمية من احتمال تغيير تعاطي واشنطن مع طهران.

> بعض القوى تستبق تولي بايدن الرئاسة للحيلولة دون تغيير استراتيجية التعاطي الأميركي مع إيران كونها داعمة للقاعدة

وهذه الوضعية تتقاطع مع حرص واشنطن، بصرف النظر عن انتماء ساكن البيت الأبيض الجديد، على تأمين جبهة أفغانستان عبر الفصل بين طالبان والقاعدة الأم، قبل الانتقال إلى المراحل النهائية من اتفاق السلام بين واشنطن وطالبان.

وتريد بعض القوى استباق تولي جو بايدن الرئاسة للحيلولة دون إحداث تغيير في استراتيجية التعاطي الأميركي مع إيران بخلاف ما كان معمولا به خلال مرحلة الرئيس المنتهية ولايته دونالد ترامب، ما دفع إلى تثبيت صورة طهران كحليف رئيسي للقاعدة عدو واشنطن الأول والتأكيد لبايدن والديمقراطيين بشكل عملي أنها ملاذ لكبار قادته.

ويفسر هذا الاتجاه مغزى اشتراك الاستخبارات الإسرائيلية في عملية تصفية الذراع اليمنى للظواهري في طهران، عبدالله أحمد عبدالله المعروف بأبي محمد المصري، فقد تلاقى هذا الهدف مع حرص الاستخبارات الأميركية على التعجيل بالتخلص من كبار قادة تنظيم القاعدة المركزي تمهيدًا لمرحلة جديدة بأفغانستان عنوانها قطع الخيوط المتبقية الرابطة بين القاعدة وطالبان.

استعادة الحضور والنفوذ

التصميم من قبل الجمهوريين والديمقراطيين في الولايات المتحدة على الخروج من أفغانستان وما يعنيه من إحداث فراغ على مختلف المستويات تعجز الحكومة الأفغانية الضعيفة عن ملئه، تجده قوى إقليمية في مقدمتها إيران، فرصة سانحة لاستعادة الحضور والنفوذ مع تجهز العديد من التنظيمات المتشددة لإعادة الانتشار في الساحة الأفغانية عقب الخروج الأميركي.

وتراهن طهران على العلاقات التي تربطها بتلك التنظيمات، وفي مقدمتها القاعدة وطالبان، علاوة على الحدود المفتوحة بين أفغانستان وباكستان، ما يسمح لحرية الإعداد لمرحلة تتجاوز فيها تقمص دور الملاذ المحتضن والمنكر في الوقت نفسه لدعم وإيواء الإرهابيين إلى مساحة الحليف المعلن لتكتل إقليمي أيديولوجي معترف به دوليا بفضاء جيوسياسي فائق الأهمية وبغطاء طالباني.

وتصفية واشنطن لقادة القاعدة، الذين يشكلون حلقة مهمة في علاقة طالبان بإيران، بالنظر للمصالح المتشابكة بين الأطراف الثلاثة، هدفها تقليص فرص طهران في لعب أدوار تخطط لها في مشهد أفغانستان وجوارها المستقبلي، معتمدة على حظوظ الإسلاميين المرتفعة في أن يشكلوا قوة رئيسية بالبلاد بعد إتمام السلام والتسوية السياسية بين الحكومة الأفغانية وطالبان.

ويظل الضغط الذي تمارسه واشنطن على طهران عبر استهداف أدواتها الموظفة لإبقاء القاعدة على خطوط الجهاد العالمي وتهديد المصالح الأميركية والتأثير في الساحة الأفغانية، محل تساؤلات كثيرة بشأن نجاعته.

ولا تعول طهران في المقام الأول على التنظيم الذي بات ضعيفا، إنما على مستقبل طالبان في حكم أفغانستان، وهيمنتها المحتملة على مقاليد السلطة بالبلاد، ما يمنح مختلف الجماعات المتطرفة قوة متزايدة في المنطقة، ويفتح المجال لتجديد دماء القاعدة المفككة وغيرها من التنظيمات خلال أقل من عقد، بالنظر إلى فشل السياسات الغربية والأميركية في معالجة الأسباب الجذرية للتطرف والإرهاب.

وإيران أول من يدرك ضعف وقرب انهيار تنظيم القاعدة المركزي وانكشاف قادته، وليس من المستبعد، كما يرى البعض، ضلوعها في صفقة سرية تخلت بموجبها عن حماية بعض أوراق القاعدة المحروقة على أراضيها في سياق تجهيزها هي الأخرى لفترة رئاسة جو بايدن، ما تؤشر له ملابسات تصفية الرجل الثاني بالقاعدة في أشهر شوارع طهران.

مفتاح مرحلة جديدة

تراهن إيران على طالبان كمفتاح مرحلة جديدة تحتوي خلالها الحركة الأفغانية شتات الجماعات المدعومة منها بعد الانسحاب الأميركي، مبقية – انطلاقا من أفغانستان الجديدة – على أدوارها السابقة في تشكيل وهندسة مهام الفصائل الجهادية السنية وتوجيهها حول العالم.

وحتى لا تفقد ورقة طالبان بعد إبرامها الاتفاق مع واشنطن، أسست إيران تحالفا موازيا يجمع بين قيادات متشددة وغير معروفة بالقاعدة وفصيل منشق عن حركة طالبان، يُطلق عليه اسم "حزب الولاية الإسلامي"، وقوامه متشددون منشقون عن طالبان يقيمون خارج أفغانستان برعاية ودعم مباشر من الحرس الثوري الإيراني، وبقيادة حجي نجيب الله.

ويعكس دعم فصيل طالباني منشق وثيق الصلة بالحرس الثوري وبالقاعدة، استعداد طهران لمختلف السيناريوهات داخل المشهد الأفغاني حتى تلك البعيدة، إذا ما اضطرت للدفع باتجاه إفشال اتفاق السلام وتعزيز نفوذ قوى مناهضة له وفي حال حدوث تغير في سلوك طالبان عبر تعاطي مختلف مع إيران والقاعدة بناء على الالتزام الحرفي ببنود اتفاق السلام مع واشنطن.

ورغم ذلك لا يبدو هذا السيناريو مرجحا بالنظر إلى أن العوامل داخل البيئة الأفغانية ومحيطها الآسيوي تجعل مجرد تصفية واشنطن لبعض قادة الفريق صاحب العلاقات القوية بطالبان داخل القاعدة غير مؤثر في تغيير موازين المشهد المستقبلي في أفغانستان وغير كاف لقطع روابط الوصال القوية بين الحركة والتنظيم، ما يعني الكثير لطهران بشأن خططها.

وعند النظر بإمعان إلى مناقشات أعضاء ومنظري القاعدة على حساباتهم الخاصة على تليغرام، في ما يتعلق بالتطورات الأخيرة، نستنتج أن التطور الأهم في نظرهم ويحظى بأولوية، هو مستقبل التنظيم في أفغانستان بعد توقيع طالبان لاتفاق مع واشنطن. ورغم انقسام الآراء ظل الموقف الغالب هو اعتبار ما جرى "نصرا مؤزرا على أميركا الشيطان الأكبر وينبغي استثماره سياسيا لنيل التمكين في الأرض".

ويعتبر تنظيم القاعدة الذي يقيم أهم قادته في أفغانستان، نفسه شريكا في النصر وفي الإنجاز الضخم الذي أحرزته طالبان، ما يعني التصميم على المشاركة في ثماره. ولعل العلامة على هذا التوجه إصرار الظواهري على مباركة الاتفاق، وإذا تأكد مصرعه، فقد مات وفي عنقه بيعة لأمير طالبان هبة الله أخوندزاده.

ويؤثر فشل تنظيم القاعدة في إدارة فروعه والتواصل مع قادة الفروع وانكشاف القادة المعروفين واستهدافهم بالقتل وموت قائد التنظيم المركزي، بالسلب في إدارة التنظيم بشكله التقليدي وفي إمكانية تنفيذ الأهداف خارجيا وتكريس نموذج الجهاد العالمي، لكنها ليست أولويات المرحلة الحالية في نظر قادة القاعدة والقوى الداعمة للتنظيم وفي مقدمتها إيران.

وما يهم الآن بالنسبة إليهم جميعا مساعدة طالبان في العبور من المرحلة الانتقالية الحالية وصولا إلى مرحلة التمكين الكامل التي يعتبرون أنفسهم شركاء فيها، بالنظر إلى أن أفغانستان التي تعتبر في أدبيات القاعدة ساحة تاريخية واستراتيجية بالغة الأهمية، صارت على بعد خطوات قليلة من إتمام الهيمنة عليها.

أما طالبان فقد رضيت بشرط عدم السماح للقاعدة أو أي كيان آخر باستخدام أفغانستان كساحة لاستهداف المصالح الأميركية والغربية، وهذا في مصلحة الحركة، التي تضررت من ممارسات وأنشطة القاعدة على الأراضي الأفغانية، حيث سقط حكم إمارة طالبان الأولى كرد فعل لاعتداءات سبتمبر 2001.

وظلت إشكالية الجهاد المعولم محل خلاف ومثار جدل بين قادة الحركة الباحثة عن استعادة سلطة وطنية محلية وقادة التنظيم الذي تهاوت سمعته، بسبب منافسة داعش له في مضمار الجهاد العالمي، وفي الوقت نفسه لم تتحدث طالبان عن قطع صلاتها بالقاعدة، لأنه من المرجح أن تزداد العلاقة بينهما متانة وقوة بعد انسحاب القوات الأميركية من أفغانستان وليس العكس.

إعادة ترتيب الأوراق

علاقة طالبان بالقاعدة أعمق من أن تنفصم بسهولة، وإذا كان وقف العمليات الإرهابية الموجهة ضد الأميركيين في أفغانستان والمنطقة هو ما تريده واشنطن لسحب جنودها بنهاية هذا العام، فهذا ما أقنعت طالبان قادة القاعدة به، حيث يرتب الكيانان أوراقهما لمجابهة تحديات المرحلة في مواجهة خصوم مشتركين وفي مقدمتهم داعش وفي نطاق جغرافي واسع يشمل خراسان (أفغانستان وباكستان) فضلا عن شبه القارة الهندية.

> حتى لا تفقد إيران ورقة طالبان، ترعى وتدعم تحالفا موازيا يضم قيادات غير معروفة من القاعدة وفصيلا منشقّا عن طالبان

ويدرك قادة طالبان جيدا أن حركتهم لن تقدر على الاضطلاع بمهام ما بعد انسحاب القوات الأميركية وتولي السلطة ومواجهة التحديات في هذا الفضاء الرحب بدون خدمات تنظيم القاعدة الذي يعتبرونه العقل المفكر والمخطط الحركي، فيما تولت الحركة العمليات الميدانية والعسكرية.

ولم يفقد تنظيم القاعدة تماسكه في أفغانستان في أعقاب تحول التنظيم إلى اللامركزية، رغم مقتل العديد من قادته وأسهم بقوة في تمدد نفوذ طالبان في جنوب آسيا عبر نشاطات فرعه بشبه القارة الهندية.

وبعد أن فقد تنظيم القاعدة سيطرته على طالبان باكستان بعد عمليات استهدفت المدنيين ما ألحق بسمعة الحركة الأفغانية والقاعدة أضرارا كبيرة، عاد وكبح جماح استهداف المدنيين وأدار نشاطا أكثر اعتدالا، ضابطا إيقاع عملياته مع استراتيجية طالبان الأم، معززا حالة التعافي السياسي داخل الحركتين على مدى عامين لتأمين انسحاب الأميركيين من أفغانستان.

وفضلا عن نجاح القاعدة في دمج جماعات منشقة وبعض الفصائل البنجابية المتحالفة معه في طالبان باكستان وطد التنظيم علاقاته مع حركة تركستان الشرقية الإسلامية وأقام تحالفات مع جماعات آسيا الوسطى التي تنشط دعويا واجتماعيا في الشمال الأفغاني، علاوة على جهوده لفرض هيمنته على الجماعات المنشقة عن الجهاديين المدعومين من باكستان بجماعة عسكر طيبة وجماعة جيش محمد.

كيف يمكن لبايدن استعادة الدور الأميركي في الخارج

واشنطن - في عالم يجمع بين توازن القوى والمعايير الليبرالية، فإنه من الطبيعي أن تمتلك الولايات المتحدة قوة ناعمة وأخرى صلبة ولكن إذا أنتجت إدارة الرئيس المنتخب جو بايدن المزيج الصحيح من كليهما، فستكون قادرة على استعادة دور واشنطن دوليا.

ومن اللافت أن بايدن لديه غريزة مختلفة فهو يرى مخاطر فقدان القيادة الأميركية، التي تسبب فيها الرئيس المنتهية ولايته تحت شعار "أميركا أولا"، لكن هناك قيودا حقيقية على لعب الولايات المتحدة الدور الذي قامت به قبل وأثناء وبعد الحرب الباردة، حيث تختلف المناظر الطبيعية الدولية والمحلية اختلافا جوهريا.

تاريخيا، واجه الرؤساء الأميركيون مطبات حول تحديد دور بلدهم لقيادة العالم، وبعد الانغماس الأخلاقي في مهمة الرئيس الراحل وودرو ويلسون لإنهاء جميع الحروب رفض مجلس الشيوخ العضوية الأميركية في عصبة الأمم وفضلت إدارة وارن هاردينغ العودة إلى الحياة الطبيعية.

ويرى دينيس روس، الذي عمل كمساعد خاص للرئيس الأسبق باراك أوباما، في مقال نشرته مجلة "ذي ناشيونال إنترست" الأميركية أنه على الصعيد الدولي، كان هذا يعني الانعطاف إلى الداخل مرة أخرى.

ويقول روس إن شعار "أميركا أولا" لم يكن هو الذي بدا وكأنه يعيد عقارب الساعة إلى الوراء نحو الفترة التي سبقت تولي القيادة والمسؤوليات الأميركية على الصعيد الدولي، بل كان السبب هو أنه شكك في فوائد التحالفات، حيث تحملت واشنطن عبئا كبيرا وهو مالا يجب أن يحصل خلال فترة بايدن.

ولم تكن القيادة على المسرح العالمي جزءا من التقليد الأميركي للسياسة الخارجية، وفق روس، الذي يعمل حاليا مستشارا وزميلا لويليام ديفيدسون المتميز في معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى رغم أن وزير خارجية هاردينغ، تشارلز إيفان هيوز، سعى إلى الحد من خطر الحرب دوليا عبر استضافة مؤتمر واشنطن البحري حول نزع السلاح.

ومن الواضح أن هاردينغ فهم أن لديه وسائل إكراه محدودة، ولكنه سعى إلى استخدام الإقناع الأخلاقي في إطار جماعي لخلق ضغوط للحد من سباق التسلح البحري، وبينما تم تحقيق قيود حقيقية بين القوى الكبرى، لم تكن هناك آليات للتنفيذ وبحلول ثلاثينات القرن الماضي لم يكن هناك أحد يحترم هذه الحدود أو غيرها.

وبعد ذلك، سعى فرانكلين روزفلت إلى تصحيح فشل الأمن الجماعي بعد الحرب العالمية الأولى من خلال إنشاء منظمة الأمم المتحدة، والقوى الأربع؛ الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفييتي والصين، لتوفير دور الشرطة.

ويقول روس، المستشار الخاص لوزيرة الخارجية السابقة هيلاري كلينتون، إن رؤية واشنطن آنذاك تهدف إلى لعب دور جديد في العالم، لكن هذا الدور ستعمل فيه مع الآخرين وسيكون من خلال المؤسسات الدولية لتوفير الأمن ومنع الحمائية وتعزيز التنمية الاقتصادية.

وكانت نقطة التحول للسياسة الخارجية الأميركية عندما جاء الرئيس هاري ترومان في 1945، إذ كانت بلاده القوة الاقتصادية المهيمنة في مواجهة أوروبا المنهارة والتهديد السوفييتي.

دينيس روس

> تحملنا عبئا كبيرا وهو ما لا يجب أن يحصل خلال فترة بايدن

وقادت إدارة ترومان تشكيل نظام قائم على القواعد لمواجهة السوفييت في الحرب الباردة عبر مجموعة من الوسائل وهي خطة مارشال ومبدأ ترومان وتأسيس حلف الناتو وإبرام اتفاق أمني مع اليابان ومؤسسات بريتون وودز المالية، ولكن تلك الفترة تختلف عما هو عليه العالم اليوم.

ولقد أدت القوة الأميركية وشبكتها من التحالفات والشركاء الإقليميين والمؤسسات المالية الدولية والتناقضات المتأصلة داخل الاتحاد السوفييتي وكتلته في النهاية إلى انهياره، وبالتالي لم يكن لواشنطن منافس فقد كانت روسيا في حالة من التحول والاضطراب وفقدان الهوية، وكانت الصين منشغلة بتوليد التنمية الاقتصادية المحلية.